سلسلة إيضاح مفاهيم السُّنّة النّبويّة (٤)

التحذير من المجازفة بالتكفير

بقلم
السيّد محمّد بن علوي المالكي الحسني

سلسلة إيضاح مفاهيم السُّنَّة النَّبويَّة (٤)

التحذير
من المجازفة بالتكفير

بقلم
السيد محمد بن علوي المالكي الحسني

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيد السادات ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأئمة الهداة .

أما بعد ، فقد نفدت الطبعة الأولى من كتابنا هذا في مدة وجيزة بفضل الله . ولما اشتد الطلب على الكتاب أصدرنا هذه الطبعة منقحة مصححة وأضفنا إليها قرار هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية الذي صدر من الديوان الملكي .

ولا شك أن هذه خطوة طيبة إذ تقطع ألسنة المتطاولين من هؤلاء الذين ينسبون إلى هذه المملكة أنها بلد التكفير .

وإنني قد ذكرت في كتابنا هذا ما يدعو إليه علماء المملكة العربية السعودية من قبل ، وذلك في فتاوى مفتي المملكة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز وإمام وخطيب المسجد الحرام الدكتور الشيخ صالح بن الشيخ عبد الله بن حميد وفتوى والده العلامة الفقيه الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله .

فالله أسأل أن يوفّق الجميع إلى ما يرضى الله ورسوله . وصلى الله عليه وآله وسلم .

المؤلف

السيد محمد بن علوي المالكي

القرار الصائب في الوقت المناسب

قرأنا جميعاً القرار الصائب الحكيم الذي أعلنه مجلس هيئة كبار العلماء في بيان أصدره ونشرته الصحف اليومية يوم الخميس ٣٠ ذو القعدة ١٤١٩ هـ اشتمل على التحذير من المسارعة إلى التكفير لأدنى شبهة .

وقال البيان : ولما كان مردّ حكم التكفير إلى الله ورسوله لم يجز أن نكفر إلا من دلّ الكتاب والسنة على كفره دلالة واضحة فلا يكفي في ذلك مجرد الشبهة والظن لما يترتب على ذلك من الأحكام الخطيرة .

وبين أنه قد يرد في الكتاب والسنة ما يفهم منه أن هذا القول أو العمل أو الاعتقاد كفر ولا يكفر من اتصف به لوجود مانع يمنع من كفره .

ثم جاء في البيان : وقد ينطق المسلم بالكفر لغلبة فرح أو غضب أو نحوهما ، فلا يكفر بها لعدم القصد كما في قصة الذي قال : (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) أخطأ من شدة الفرح . والتسرع في التكفير يترتب عليه أمور خطيرة من استحلال الدم والمال ومنع التوارث وفسخ النكاح وغيرهما مما يترتب على الردة .

فكيف يسوغ للمؤمن أن يقدم عليه لأدنى شبهة ؟ إلى آخر البيان .

وهذا البيان في الحقيقة جاء في وقته المناسب له . . . جاء في محله . . ومن أهله . . وهو الذي كان ينتظره العالم كله منهم لأنهم يعلّقون آمالهم ورجاءهم وحسن ظنهم في المملكة ورجالها وسياستها وعلمائها ، ويعتبرون أنها الميزان والمرجع وأن قولها في أي مسألة أو قضية هو الحكمة الحسنة والعقل الراجح والرأي الناجح . وهذا من نعم الله .

وفي هذا البيان القول الفصل لقطع شبه ودعاوي الأدعياء الذين يحتجّون في أعمالهم الكفرية والإرهابية بالمملكة فينسبون إليها إفرازاتهم السيّئة وجرائمهم النكراء وجراءتهم على الكتاب والسنة واستهتارهم بالمسؤولين وبأئمة المسلمين وعامتهم وتوزيعهم للجنة والنار ومراتب الشهداء على ما يشتهون ويريدون ممن يدور في فلكهم وينساق معهم ويسير في طريقهم بلا بصيرة ولا نظر .

لذلك فإني أحيّي في رسالتي هذه هيئة كبار العلماء وأقول : إن الله سبحانه وتعالى قَد وفقهم في هذه الخطوة العظيمة توفيقاً يدفع شراً خطيراً ، وينفع نفعاً كبيراً . وكم ستحقن دماء وتحفظ أعراض وتصان حرمات وتستر عورات وتسد ثغرات بمثل هذه الخطوات المدروسة التي تدل دلالة واضحة على ما أكرمنا الله به في بلادنا العزيزة من حكام يعملون منذ بداية عهدهم على نشر الدين والعلم والثقافة وبناء الحضارة الإنسانية والعمرانية والاجتماعية على أسس متينة ومناهج واضحة ابتداءً من المرحوم الملك عبد العزيز الذي وحّد الجزيرة وجمع الكلمة وأزال الفوارق العصبية وهدم الحواجز العنصرية حتى لم يجد دعاة السوء من المتطفلين والعملاء والدخلاء الأجانب . . . لم يجد هؤلاء لهم مكاناً في المجتمع السعودي المتماسك الموحد الملتحم بقيادته بولاء صادق مملوء بالمحبة والثقة والأمانة .

وهذا البلاء والشر هو الذي تعاني منه اليوم - وهو المشاهد - كثير من المجتمعات ما لا يخفى من التفرق والإرهاب والخوف ، إذ تمكن دعاة السوء وأدعياء الإصلاح من بثّ الفتنة وتشويه الصورة واغتنام فرصة الخلاف الفكري والعلمي - وهو أمر بديهي وواقعي - لتوليد المشاكل وتعقيد الأمور وخلق قضايا لا تنفع بل تضر ، ولا تجمع بل تفرق ، ولا تحمد عقباها بل تذم من مبتداها إلى منتهاها . وكثير من الناس يذوق ألمها ويصطلي بنارها اليوم التي تبدو أحياناً وتختفي أحياناً أخرى .

ولكن الله سبحانه وتعالى حفظ بلادنا من ذلك السوء والشر بفضل ما منّ به على حكامنا وولاة أمورنا من العقل والحكمة والتأني والتثبت الذي تظهر نتائجه في كل مناسبة وحادثة وهو ما يدعو إليه هذا البيان .

ولقد دعا الملك عبد العزيز إلى هذه المعاني السامية في خطبه وبياناته ، وخصوصاً في البيان الذي وجهه إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد بمكة المكرمة في ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٤٤ هـ والذي بيّن للمؤتمرين أن مهمة العلماء في عصرنا هذا هو إيقاظ الشعور والغيرة في نفوس المسلمين وحمل رؤسائهم وقادتهم على الوقوف في وجه أعداء الإسلام المستعبدين للمستضعفين من المؤمنين . ومن يشغل نفسه بالمسائل الخلافية فإنما يفرق بها صفوف المسلمين ويغطي على تقصيره وانحرافه عما هو واجب عليه مما لا يعذر فيه ولا يجزيه من الله شيء . فالإسلام لا أرض له اليوم والمسلمون يسامون الهوان في كل مكان ، ولن تقوم قائمة ولن ترفع عنهم عصا الذل حتى يجندوا أنفسهم للدفاع عن كيان الإسلام وحماية بيضته مع من بيده الحل والعقد من أولي الأمر ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (إلى آخر خطبة الملك رحمه الله) .

وإليكم نص البيان :

أعلن مجلس هيئة كبار العلماء في بيان أصدره عن ما يجرى في كثير من البلاد الإسلامية وغيرها من التكفير والتفجير وما ينشأ عنه من سفك الدماء وتخريب المنشآت . وما يترتب عليه من إزهاق أرواح بريئة وإتلاف أموال معصومة واخافة الناس وزعزعت الأمن والاستقرار . أعلن أن الإسلام بريء من معتقد التكفير الخاطئ وإن ما يجرى في بعض البلدان من سفك للدماء البريئة وتفجير للمساكن والمركبات والمرافق العامة والخاصة

وتخريب للمنشآت هو عمل إجرامي والإسلام بريء منه وكذلك كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر .

وأوضح البيان أن من يقوم بمثل هذه الأعمال من التفجير والتخريب بحجة التكفير إنما هو تصرف من صاحب فكر منحرف وعقيدة ضالة . فهو يحمل إثمه وجرمه فلا يحتسب عمله على الإسلام ولا على المسلمين المهتدين بهدى الإسلام المعتصمين بالكتاب والسنة المتمسكين بحبل الله المتين وإنما هو محض إفساد وإجرام تأباه الشريعة والفطرة . ولهذا جاءت نصوص الشريعة قاطعة بتحريمه محذرة من مصاحبة أهله .

قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ .

وأوضح بيان مجلس هيئة كبار العلماء أن التكفير حكم شرعي مرده إلى الله ورسوله فكما أن التحليل والتحريم والإيجاب إلى الله ورسوله فكذلك التكفير وليس كل ما وصف بالكفر من قول أو فعل يكون كفراً أكبر مخرجاً عن الملة . .

ولما كان مرد حكم التكفير إلى الله ورسوله لم يجز أن نكفر إلا من دل الكتاب والسنة على كفره دلالة واضحة فلا يكفي في ذلك مجرد الشبهة والظن لما يترتب على ذلك من الأحكام الخطيرة .

وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات مع أن ما يترتب عليها أقل مما يترتب على التكفير فالتكفير أولى أن يدرأ بالشبهات ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الحكم بالتكفير على شخص ليس بكافر فقال . . أيما امرىء قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه . . .

وقد يرد في الكتاب والسنة ما يفهم منه أن هذا القول أو العمل أو الاعتقاد كفر ولا يكفر من اتصف به لوجود مانع يمنع من كفره وهذا الحكم كغيره من الأحكام التي لا تتم إلا بوجود أسبابها وشروطها وانتفاء موانعها كما في الإرث سببه القرابة مثلاً وقد لا يرث بها لوجود مانع كاختلاف الدين .

وهكذا الكفر يكره عليه المؤمن فلا يكفر به وقد ينطق المسلم بكلمة بالكفر لغلبة فرح أو غضب أو نحوهما فلا يكفر بها لعدم القصد كما في قصة الذي قال . . اللهم أنت عبدي وأنا ربك . . أخطأ من شدة الفرح . والتسرع في التكفير يترتب عليه أمور خطيرة من استحلال الدم والمال ومنع التوارث وفسخ النكاح وغيرها مما يترتب على الردة فكيف يسوغ للمؤمن أن يقدم عليه لأدنى شبهة .

وإذا كان هذا في ولاة الأمور كان أشد لما يترتب عليه من التمرد عليهم وحمل السلاح عليهم وإشاعة الفوضى وسفك الدماء وفساد العباد والبلاد ولهذا منع النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم من منابذتهم فقال . . إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان . . فأفاد قوله : (إلا أن تروا) . . إنه لا يكفي مجرد الظن والإشاعة .

وأفاد قوله (كفراً) أنه لا يكفي الفسوق ولو كبر كالظلم وشرب الخمر ولعب القمار والاستئثار المحرم وأفاد قوله (بواحاً) أنه لا يكفي الكفر الذي ليس ببواح أي صريح ظاهر وأفاد قوله (عندكم فيه من الله برهان) أنه لا بد من دليل صريح بحيث يكون صحيح الثبوت صريح الدلالة .

فلا يكفي الدليل ضعيف السند ولا غامض الدلالة وأفاد قوله (من الله) أنه لا عبرة بقول أحد من العلماء مهما بلغت منزلته في العلم والأمانة

إذا لم يكن لقوله دليل صريح صحيح من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهذه القيود تدل على خطورة الأمر .

وجملة القول أن التسرع في التكفير له خطره العظيم لقول الله عز وجل ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . وأضاف البيان أن ما نجم عن هذا الاعتقاد الخاطئ من استباحة الدماء وانتهاك الأعراض وسلب الأموال الخاصة والعامة وتفجير المساكن والمركبات وتخريب المنشآت هي وأمثالها أعمال محرمة شرعاً بإجماع المسلمين لما في ذلك من هتك لحرمة الأنفس المعصومة وهتك لحرمة الأموال وهتك لحرمات الأمن والاستقرار وحياة الناس الآمنين المطمئنين في مساكنهم ومعايشهم وغدوهم ورواحهم وهتك للمصالح العامة التي لا غنى للناس في حياتهم عنها . وقد حفظ الإسلام للمسلمين أموالهم وأعراضهم وأبدانهم وحرم انتهاكها وشدد في ذلك وكان من آخر ما بلغ به النبي صلى الله عليه وسلم أمته فقال في خطبة حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) ثم قال صلى الله عليه وسلم (ألا هل بلغت اللهم فاشهد) متفق عليه . وقال صلى الله عليه وسلم (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) وقال عليه السلام (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) .

قد توعد الله سبحانه من قتل نفساً معصومة بأشد الوعيد فقال سبحانه في حق المؤمن (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) . وقال سبحانه في حق الكافر الذي له ذمة في حكم قتل الخطأ ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ . فإذا كان الكافر الذي له أمان إذا

قتل خطأ فيه الدية والكفارة فكيف إذا قتل عمداً فإن الجريمة تكون أعظم والإثم يكون أكبر . وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة) . وأكد البيان أن الواجب على جميع المسلمين في كل مكان التواصي بالحق والتناصح والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ وقال سبحانه ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ . وقال عز وجل ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله . . قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

ونسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكف البأس عن جميع المسلمين وأن يوفق جميع ولاة أمور المسلمين إلى ما فيه صلاح العباد والبلاد وقمع الفساد والمفسدين وأن ينصر بهم دينه ويعلي بهم كلمته وأن يصلح أحوال المسلمين جميعاً في كل مكان وأن ينصر بهم الحق إنه ولي ذلك والقادر عليه . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

مقدّمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فلقد ابتلي المؤمنون في هذه الأعصر الأخيرة الجديدة بمحنٍ وبلايا وزلازل نفسية شديدة ، حتى شك المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ في وعد الله الكريم بالنصر والتأييد لأهل الحق وقالوا : ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ؛ ولكن المؤمنين الصادقين ما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً ونوراً ، وثباتاً وطمأنينةً وفرحاً وسروراً ، بثواب العاملين وجوائز الصادقين ، ورضا رب العالمين وسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

ومن أعظم تلك المحن والمصائب ما يجري على الساحة اليوم من تكفيرٍ ونقدٍ وردودٍ تحولت إلى عنادٍ شخصي ، وانتصارٍ ذاتي ، وعداءٍ ظاهر ، وانتهاكٍ للأعراض والحُرُمات ، وتلمّسٍ للمعائب ، وتشفٍّ بإلصاق التهم بالناس وتتبع العورات والهفوات ، ونشرٍ للعثرات ، وسترٍ للخيرات والفضائل ، ومن ذا الذي ما ساء قط ، كما قال الشاعر :

سامح أخاك إذا خلط ... منه الإصابة بالغلط

وتجاف عن تعنيفه ... إن جار يوماً أو قسط

من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

غير نبينا الذي ... عليه جبريل هبط

قال بعض أهل العلم :

وقد وقعت هذه البَلِيةُ والطَّامّةُ التي كنا نخاف منها، ونحذّر شبابنا من الوقوع فيها والدخول في ظلماتها.

وهذه البَلِيةُ هي ما نسمعه من الطعن في العلماء بأسلوبٍ ماكان يُعْرف من قبل، وماكان يُتوقع أنه في يوم من الأيام يقع في هذه البلاد خاصة، والتي لا يزال العلماء الأجلاء الذين هم بقية السلف الصالح يحذّرون منها، وقد وصل الأمر هذا ذروته وظهر في أشده واستوى على سوقه في هذه الأيام . اهـ .

يقول الأستاذ الدكتور طه جابر فياض العلواني أستاذ الفقه وأصوله في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً :

بدأنا نرى شباباً ينتسبون إلى السلفية ، وآخرين ينتسبون إلى أهل الحديث، وفريقاً ينتسبون إلى المذهبية، وآخرين يدعون اللامذهبية، وبين هؤلاء وأولئك تتبادل الاتهامات المختلفة من التكفير والتفسيق والنسبة إلى البدعة والانحراف والعمالة والتجسس ونحو ذلك ، مما لا يليق بمسلمٍ أن ينسب أخاه إليه بحال ، فضلاً عن أن يُعْلنه للناس بكل ما لديه من وسائل، غافلين أو متغافلين عن أن ما يتعرض له

الإسلام من محاولات استئصال أخطر على الأمة من تلك الاختلافات، وإذا كان للأئمة المجتهدين أسباب اختلافٍ تُبرّر اختلافهم وتُخفف منها، وتساعد على وضعها ضمن ضوابط الاختلاف ، فإن أرباب الاختلاف من المعاصرين لا يملكون سبباً واحداً من أسباب الاختلاف المعقول ، فهم ليسوا بمجتهدين، وكلهم مقلدون بمن فيهم أولئك الذين يرفعون أصواتهم عالياً بنبذ التقليد ونفيه عن أنفسهم ، وأنهم يأخذون الأحكام من الكتاب والسنة مباشرةً دون تقليد ، وهم في الحقيقة يعكفون على بعض كتب الحديث ، ويقلدون كاتبيها في كل مايقولون في الحديث ودرجته ورجاله، ويتابعونهم في كل مايستنبطونه من تلك الكتب أو ينقلونه من الفقهاء.

قلت: وغاية ما يفعلونه هو تقليد علمائهم ممن يدّعون الاجتهاد في الفقه والحديث وترك تقليد الأئمة السابقين، إذ تراهم ينقلون مثلاً الحديث وحكم العلماء السابقين عليه تصحيحاً أو تضعيفاً، ثم يُؤيدون ذلك بكلام المعاصرين وينقلونه قضيةً مسلّمةً لا شك فيها.

أليس هذا هو التقليد بعينه؟ بل هو التقليد الأعمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

ثم قال الأستاذ الدكتور الفياض: وكثيرٌ منهم من ينسب لنفسه العلم بالرجال ومعرفة مراتب الجرح والتعديل وتاريخ الرجال، وهو في ذلك لا يعدو أن يكون قد درس كتاباً من كتب القوم في هذا الموضوع أو ذاك، فأباح لنفسه أن يعتلي منبر الاجتهاد، وحق له أن

يتعالى على العباد ، وحريٌّ بمن نال نصيباً من العلم أن ينهاه علمه من أن يكون من الجاهلين ، وأن يرتفع عن توزيع الألقاب واتهام الناس، ويدرك خطورة ماتتعرض له عقيدة الأمة، فيعمل على الذب عنها، ويحرص على جمع القلوب، ومادام الجميع يقلدون ويأخذون عن أئمتهم أقوالهم على اختلافهم ـ وإن زعموا غير ذلك ـ فلا أقل من أن يلتزموا بآداب الاختلاف التي عاش في كنفها كرام الأئمة من السلف[1] ا.هـ.

لقد ابتلينا بجماعة تخصصت في توزيع الكفر والشرك وإصدار الأحكام بألقابٍ وأوصافٍ لا يصح ولا يليق أن تُطلق على مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كقول بعضهم فيمن يختلف في الرأي والمذهب معه مُخرف... دَجَّال... مُشعوذ... مُبتدع. . وفي النهاية مُشرك... وكافر...

ولقد سمعنا كثيراً من السُّفهاء الذين ينسبون أنفسهم إلى العقيدة يكيلون مثل هذه الألفاظ جُزافاً ويزيد بعض جهلتهم بقوله: داعية الشرك والضلال في هذه الأزمان، ومجدد ملة عمرو بن لحيّ المدعو بفلان...

هكذا تسمع بعض السفهاء يكيل مثل هذا السب والشتم وبمثل هذه الألفاظ القبيحة التي لا تصدر إلا عن السوقة الذين لم يجيدوا أسلوب الدعوة وطريقة الأدب في النقاش.

---

(١) «أدب الاختلاف في الإسلام». للدكتور طه جابر فياض.

هكذا تأتي هذه الألفاظ متتابعة ومتتالية، وهكذا نسمعها بنغمةٍ واحدة وفي موطنٍ واحد وفي منبعٍ واحد.

لذلك تنبّه الغيورون من أهل الحل والعقد والفكر والنظر والعقل والفهم الصحيح للدين وأحوال المجتمع ومتغيرات الزمان التي لا تقدح في أصل الدين، وإنما هي داخلةٌ تحت هيمنته وقيادته وسلطانه إذا أحسن الناظر الباحث فهمها وأتقن تدبّرها، وتبصّر فيها بما أعطاه الله من عِلمٍ وعقلٍ وفَهمٍ في كتاب الله جل جلاله وسُنَّة رسوله ﷺ.

تنبّه العلماء لهذه الفتنة التي يستغلها أعداء الإسلام للإيقاع بأهله، وضرب بعضهم ببعض، فقاموا بواجب النصيحة والتحذير، فجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين ، وجمع بهم كلمة المسلمين ، وأزال بهم التفرق والخلاف.

وهذه خلاصةٌ مفيدةٌ شاركنا بها في هذا الموضوع المهم، عسى الله أن ينفع بها وأن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم.

وإني أرجو ممن يطلع على بعض أقوال العلماء في هذه الخلاصة ويجد في نفسه مخالفةً ويريد أن ينتقد أو أن يعترض، أن يلتزم الأدب في القول، وأن يبتعد عما تعوده بعض المنتقدين من الفجور في الخصام والغلو في البغض والهجوم في الكلام دون تفريق بين حلالٍ وحرام.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

موقف الإمامين ابن تيمية والشوكاني

يقول الإمام الشيخ ابن تيمية: «إن القول قد يكون كُفراً فيطلق القول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال هذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يُكفر تاركها، وهذا كما في نصوص الوعيد، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حقٌّ، لكن الشخص المعين لا يُشهد عليه بالوعيد، فلا يُشهد على مُعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد، لفوات شرطٍ أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المُحرم، وقد تكون له حسناتٌ عظيمةٌ تمحو عقوبة المُحرم، وقد يُبتلى بمصائب تُكفر عنه، وقد يشفع فيه شفيعٌ مطاع.

قال: وهكذا الأقوال التي يُكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق.

قال: وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد تكون عرضت له شبهات يَعْذُره الله بها.

قال: ومذاهب الأئمة مبنيةٌ على هذا التفصيل بين النوع والمعين.

ورأيت للشيخ أيضاً في كتاب «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول» للشيخ عبد الرحمن السعدي في (ص ٧٦) مانصه: «ولا يلزم إذا كان القول كُفراً أن يُكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل، فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه، وذلك له شروطٌ وموانع». ا. هـ

ونقل السيد صديق حسن خان في «الروضة الندية» ما قاله العلامة الشوكاني في كتابه «السيل الجرار» قال:

«اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في دين الكفر، لا ينبغي لمسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقْدِمَ عليه إلا ببرهانٍ أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن: «من قال لأخيه: ياكافر فقد باء بها أحدهما» هكذا في الصحيح.

وفي لفظ آخر في الصحيحين وغيرهما: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك، إلا صار عليه أي رجع».

وفي لفظ في الصحيح: «فقد كفر أحدهما».

ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجرٍ وأكبر واعظٍ عن الإسراف في التكفير، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾.

فلا بد من شرح الصدر بالكفر وطمأنينة القلب وسكون النفس إليه، فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشرك لا سيما مع الجهل

بمخالفتها لطريقة الإسلام، ولا اعتبار بصدور فعل كُفري لم يُرِد فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر، ولا اعتبار بلفظٍ يتلفظ به المسلم يدل على الكفر ولا يعتقد معناه.

* * * * *

موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وقد وقف الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في هذا الميدان موقفاً عظيماً، قد يستنكره كثيرٌ ممن يدعى أنه منسوبٌ إليه ومحسوبٌ عليه، ثم يكيل الحكم بالتكفير جُزافاً لكل من خالف طريقته ونبذ فكرته، وها هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب يُنكر كل ماينسب إليه من هذه التفاهات والسفاهات والافتراءات، فيقول ضمن عقيدته في رسالته الموجهة لأهل القصيم قال:

«ثم لا يخفى عليكم أنه بلغني أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم، وأنه قَبِلَها وصدقها بعض المنتمين للعلم في جهتكم، والله يعلم أن الرجل افترى عليَّ أموراً لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالي.

فمنها: قوله: إني مبطلٌ كتب المذاهب الأربعة، وإني أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وإني أدعي الاجتهاد، وإني خارجٌ عن التقليد، وإني أقول: إن اختلاف العلماء نقمة، وإني أكفر من توسل بالصالحين، وإني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وإني أقول: لو أقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ لهدمتها، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزاباً من خشب، وإني أُحرم زيارة قبر النبي ﷺ، وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما،

وإني أُكفر من حلف بغير الله، وإني أُكفر ابن الفارض وابن عربي، وإني أحرق دلائل الخيرات وروض الرياحين، وأسميه روض الشياطين.

جوابي عن هذه المسائل: أن أقول: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾. وقبله من بهت محمداً ﷺ أنه يسب عيسى ابن مريم ويسب الصالحين، فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية، بهتوه ﷺ بأنه يقول: إن الملائكة وعيسى وعزيراً في النار، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1].

* * * * *

(١) انظر الرسالة الأولى من الرسائل الشخصية ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب المنشورة باهتمام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (القسم الخاص ص/ ٣٧).

رسالةٌ مهمةٌ أخرى للشيخ في الموضوع

هذه رسالةٌ أرسلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى السويدي عالمٌ من أهل العراق، وكان قد أرسل له كتاباً وسأله عما يقول الناس فيه، فأجابه بهذه الرسالة: قال فيها:

«إن إشاعة البهتان مما يستحي العاقل أن يحكيه فضلاً عن أن يفتريه مما قلتم: إنني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني، ويا عجباً كيف يدخل هذا في عقل عاقلٍ، وهل يقول هذا مسلم؟.

وما قلتم: لو أنني أقدر على هدم قبة النبي ﷺ لهدمتها، وفي دلائل الخيرات لحرّمتُه، وأنهى عن الصلاة على النبي ﷺ بأي نظمٍ كان، فهذا من البُهتان، والمسلم لا يظنّ في قلبه أجل من كتاب الله.

وفي موضع آخر قال رحمه الله: وما قلتم: إنني أكفر من توسّل بالصالحين، وأكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وأنكر زيارة قبر النبي ﷺ، وأنكر زيارة قبور الوالدين وغيرهم، وأكفر من حلف بغير الله.

جوابي على ذلك أقول: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[1].

---

(١) انظر القسم الخامس - الرسائل الشخصية ص٣٧من مجموعة مؤلفات الشيخ.

بيانٌ مهم

بيانٌ مهم في الموضوع من الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي المملكة:

في بيانٍ للرئيس العام لإدارة البحوث والإفتاء في المملكة العربية السعودية أكد سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز مفتي المملكة والرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء: أنه قد شاع في هذا العصر أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدعوة إلى الخير يقعون في أعراض كثيرٍ من إخوانهم الدُّعاة المشهورين، ويتكلمون في أعراض طلبة العلم والدعاة والمحاضرين.

وقال الشيخ ابن باز في بيانه: إنهم يفعلون ذلك سراً في مجالسهم، وربما سجلوه في أشرطةٍ تُنشر على الناس، وقد يفعلونه علانية في محاضرات عامة في المساجد، وهذا المسلك مخالفٌ لما أمر الله به ورسوله.

وقال الشيخ أيضاً: إن في ذلك إفساداً لقلوب العامة، ونشراً وترويجاً للأكاذيب والإشاعات الباطلة، وسبباً في كثرة الغيبة والنميمة، وفتح أبواب الشرّ على مصاريعها لضعاف النفوس الذين يدأبون على بث الشبه وإثارة الفتن، ويحرصون على إيذاء المؤمنين بغير ما اكتسبوا.

ثم قال: فالذي أنصح به هؤلاء الإخوة الذين وقعوا في أعراض الدُّعاة ونالوا منهم أن يتوبوا إلى الله تعالى مما كتبته أيديهم أو تلفظت به ألسنتهم، مما كان سبباً في إفساد قلوب بعض الشباب وشحنهم بالأحقاد والضغائن، وشغلهم عن طلب العلم النافع وعن الدعوة إلى الله بالقيل والقال والكلام عن فلان وفلان، والبحث عما يعتبرونه أخطاءً للآخرين، وتَصَيُّدِها وتكلف ذلك، كما أنصحهم أن يكفروا عما فعلوا بكتابة أو غيرها مما يبرئون فيه أنفسهم في مثل هذا الفعل، ويزيلون ماعلق في أذهان من يستمع إليه من قولهم، وأن يُقبلوا على الأعمال المثمرة التي تقرب إلى الله وتكون نافعةً للعباد، وأن يحذروا من التعجل في إطلاق التكفير أو التفسيق أو التبديع لغيرهم بغير بينةٍ ولا برهان، وقد قال النبي ﷺ: «من قال لأخيه ياكافر فقد باء بها أحدهما» متفق على صحته. ا. هـ

تأكيد الشيخ ابن باز تحذيره عن المبادرة إلى التكفير والتشهير

وفي لقاءٍ مفتوح تكلم الشيخ عبدالعزيز بن باز مؤكداً تحذيره السابق فيما تقدم، ومما جاء في ذلك اللقاء قوله:

«وقد قيض الله لنا حكومة تُراعي أمر الدين وأمر الأمن وأمر الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحكيم شريعة الله، وتنهى عمّا نهى الله عنه، هذه من نعم الله العظيمة، وفعل ذلك هو الأصل الذي درجت عليه هذه الدولة وأسلافها، ودرج عليه علماء المسلمين في هذه البلاد منذ عهد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ومن عهد الإمام محمد بن سعود رحمه الله، فالدعوة إلى الله وإلى توحيده والتواصي بالحق والصبر عليه والنظر في هذه النعمة وشكر الله عليها، ثم التواصي بالدوام عليها والدعوة إليها بين العلماء والأمراء والأغنياء والعامة والخاصة، هي نعمة يجب أن نتباهى بحفظها والاستقامة عليها والدعوة إليها، وأن نتعاون على البر والتقوى، وأن نتواصى بالحق والصبر عليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن نسلم أمرنا لله كما أمر الله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فالنصح بالأسلوب الحسن والكفاية المفيدة والمشافهة المفيدة، وليس من النصح التشهيرُ بعيوب الناس وانتقاد الدولة، لكن النصح أن تسعى

بكل ما يزيل الشر ويثبت الخير بالطرق الحكيمة ، وبالطرق التي يرضاها الله عز وجل، ونحن في نعمٍ عظيمةٍ، نعمة الإسلام، ونعمة الصحة والعافية، ثم النعمة الكبرى التي من الله بها علينا في الحادثة الكبرى حادثة الخليج بعد عدوان عدو الله صدام وجنده واجتياحه لبلد الكويت، ثم يسر الله للدولة أن قامت بدورها في هذا الأمر، وقامت القيام العظيم لرفع هذا الظلم واستعانت بالله العظيم، ثم بالجنسيات المشتركة المتعددة التي ساعدت في رفع هذا الظلم»[1].

* * * * *

(١) جريدة المدينة - السبت ٢٨رجب١٤١٢هـ.

أدب الخلاف

ولقد أحسن وأجاد وأفاد فضيلة الدكتور الشيخ صالح بن عبدالله ابن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام المعروف بعلمه وفضله واتزانه وإتقانه، لقد أحسن فيما قال وكتب عن أدب الخلاف في هذا الوقت المناسب الذي تدعو إلى مثله الحاجة بإلحاحٍ شديد، فوضع النقاط على الحروف، وأتى بالمتفق عليه بين الجميع مما هو معروف، وأظن أنه لو التزم أصحاب الخلاف بما قاله الشيخ صالح ابن حميد في رسالته القيمة هذه لما ظهر ماظهر، ولما حصل ما حصل، من الفُرقة والعداء والسب والشتم والرد والمردود.

يقول فضيلة الشيخ صالح في كتابه:

«يجب الجدُّ في السعي من أجل إحياء الأخوة الإسلامية الحقة لتلتقى الأمة بفئاتها وجماعاتها على نصرة دين الله حباً فيه وولاءً لله ولرسوله ﷺ انتماء يستعلي على كل انتماء، والخطاب في هذا اللقاء أيها الإخوة.. موجهٌ إلى أهل العلم والفكر.. علماء وطلبة علم.. تُطرح القضايا والمسائل على بساط البحث، ويُبذل الجهد في تمييز الصواب من الخطأ، يحترم رأي كل مجتهدٍ سواء كان مخطئاً أو مصيباً، والتحامل على المجتهد أو تجريحه مسلكٌ في العلم منكور، وخطؤه لا يبيح النيل من عرضه، ولا يسوغ تلمس المعايب للبرآء

والتشهي بإلصاق التهم بالناس.

إن على أهل العلم والدعوة أن يستبينوا قيمة ما يدعون إليه، فليس الحق حِكراً على مسلك، والخلاف في الرأي لا يجوز أن يكون مصدر لجاجة أو غضب، إن من شأن المجتهدين أن يختلفوا، ونتائج هذا الاختلاف مقبولةٌ من غير تشنج ولا تعصب، ومن غير أن ينبني على هذا شقاق، أو تتنامى بسببه أحقاد، إن حق النقد لا يجعل الحق حِكراً على الناقد.

من المؤسف ومن القصور أن يتحول الخلاف في وجهات النظر إلى عنادٍ شخصي وانتصارٍ ذاتي إلى عداءٍ ماحق، ومن المبكي أن يبدأ الخلاف في فرعية صغيرة فيرقى إلى الاتهام في أصول الإسلام وقواعد الديانة.

إن سوء الأدب في الجدل والمناظرة يُسوغ لأصحابه استحلال أعراض المسلمين ولا سيما العلماء والدعاة، فيتحول الاهتمام إلى تتبع الزلات وتلمس العثرات، فَيُتبع كثيرٌ من الظن من أجل أن قليله كان صواباً.

إن الداعي لمثل هذه الكلمات -أيها الإخوة في هذا اللقاء الطيب- أن رجالاً أفذاذاً وعلماء أجلاء خدموا هذا الدين، وبلغوا في العلم مبلغاً جاهدوا في الله وكافحوا من أجل دينه ذكاء في العقول وزكاة في النفوس ، أثرهم في الناس ظاهرٌ وقدم صدقهم في نصرة الحق ألا نغلو فيهم، فنبرز أخطاءهم ونعادي من خالفهم، كما أنه لا

يسوغ أن نجفوهم فنستحل أعراضهم ونتنكر لجليل أعمالهم ونزدري جهودهم، فكل عالم يُؤخذ من قوله ويُترك، وفرقٌ بين نقد عالم من علماء المسلمين له باعٌ في العلم والدعوة وأثرٌ حسن على الأمة، وبين الرد على مُلحدٍ متجن أو كافرٍ مُغْرض أو مُستشرقٍ حاقد.

من هذا المنطلق وهذه النظرة - أيها الإخوة - تكون بدايات هذا الحديث، حيث نبين الخلاف وأنواعه ووقوعه في حياة الناس، ثم نشير إلى نماذج من أدب الصحابة والسلف، ونخلص إلى بعض الآداب في هذا الباب»[1]. ا. هـ

* * * * *

(١) «أدب الخلاف» للشيخ صالح بن عبد الله بن حميد ص ٦-٨.

خطبة الجمعة بتأييد الموقف

وفي خطبة الجمعة بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ بالمسجد الحرام، تكلم فضيلة الشيخ صالح بن حميد في نفس الموضوع، مؤكداً تحذيره من الخلاف والشقاق، ومحذراً من هذه الفتنة الهوجاء فقال:

«أيها الإخوة في الله! عقيدة التوحيد تجمعنا ودار السلام تؤوينا، ولكن من المحزن أن يحس المسلم الغيور بغاراتٍ شعواثية يشنها خصوم الإسلام على الإسلام، ولأمة الإسلام خصومٌ من الداخل والخارج، أغراضٌ متباينة وأهواءٌ كامنة وراء اتساع هذه الهجمات، وإلحاحٌ مقيت من مُسعريها مع كثرة الدخلاء وفشوّ سوق النفاق.

إخوة العقيدة وطلاب الحقيقة على حساب من تُستثار المشاعر المشبوهة، إن أصحاب الأغراض والأهواء لا يجدون مُتنفساً لما في صدورهم إلا بتتبع الهفوات واستغلال الزلات وتلفيق الاتهامات، إن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، وبالهوى يخرج العالم من السُّنّة إلى البدعة، وبالهوى يقع الزاهد المتزهد في الرياء والسمعة، وبالهوى يقع الحاكم والمسئول في الظلم ويبتعد عن الحق والحكمة، وإذا زاد الهوى واختلفت النيات، تولدت الجرأة على الله وعلى الناس، وفشت الطعون والمكائد، ونُصبت حبائل المكر وشِبَاكُ الخديعة،

ومن ثم تحصل الفرقة والشحناء، ويتمكن الأعداء ويذل أهل الإسلام.

إن أهل الأهواء يريدون في الأمة اختلافاً وتنافراً وتنابذاً وتنابزاً، يريدون منها أن تذل بعد عزها وتنحط بعد رفعتها، يريدون منها أن تتفرق في دينها شيعاً ومذاهباً وأحزاباً.

ثم قال: إن الاختلاف في وجهات النظر بذاته لا يُثير نزاعاً ولا يُولد تنافراً، ولكن صاحب الهوى والمُعجب بنفسه يجعل الحق في كفة ونفسه المخذولة في كفة، إن الخلاف العلمي لا يُثير حفائظ النفوس ومكنونات الصدور إلا عند من قل في دين الله فقهه، وضَعُفت تربيته وساء قصده ونيته، أما العلماء الراسخون والدعاة الصادقون والكتاب المخلصون، فأولئك عن هذا مبعدون.

ذلكم أيها الإخوة لأن سُنَّة الله في البشر أن يختلفوا ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ الفقهاء والعلماء والدعاة ليسوا بدعاً من البشر، وليسوا بخارجين عن هذه السُنَّة، فالأنظار متفاوتة والأدلة مختلفة والاستنتاج متباين، وكل ذلك خلافٌ سائغٌ ووجهات نظر محترمة، ومن أصاب من أهل الاجتهاد فله أجران، ومن أخطأ فله أجر.

ثم قال: إن من علامات الرجولة ودلالات الكمال أنك حين تُخالف امرءاً في تفكيره أو تُعارضه في وجهات نظره، لا ينطوي فؤادك على كرهه، أو يمتلىء صدرك بالغيظ منه وينطلق لسانك

بتجريحه واتهامه، إن من المعاصي أن ترى كاتباً مُغرضاً أو قارئاً سيئاً أو مُستمعاً مُتجنياً يُطالع في سير الرجال، ويقرأ في كتبهم ويستمع إلى تسجيلاتهم، فلا يستوقفه إلا ما يُنسب إليهم من هنات، أو يزلون فيه من أخطاء، أما ماأفاء الله عليهم من محامد، وما قدموا للناس من حقٍّ وخير، فلا يأبهون به ولا يذكرونه، إنهم كجيران السوء، إذا رأوا خيراً دفنوه وإذا رأوا شراً طاروا به وأذاعوه، وإن التماس الأخطاء وتحريف الكَلِم وتأويل النصوص من أجل التشهير والتنقيص، لا يُقيم عوجاً ولا يرفع خسيسة، وبالله نعوذ وإليه نلتجيء من أقوامٍ رائدهم الهوى وقائدهم الشيطان، وحاكمهم التعصب ومركبهم التجني، وبالله نستغيث من فئةٍ تتلمس العيب للبرآء والخطأ للمصيبين والذنب لمن لا ذنب له، إن المؤمن الحق ورجل الدعوة الصدق، هو الذي يملك نفسه في مثل هذه المقامات ويثبت عند هذه المُنعطفات، يملك زمام لسانه وفكره وقلمه من أن يفلت بسبب كلمةٍ طائشة أو وشاية حاقدة». (انتهى من تسجيل الخطبة).

* * * * *

المملكة ليست مصدراً للتكفير
أو الهجوم والتجريح

ويُعْرف بما سبق من الأقوال لكبار علماء المملكة العربية السعودية وبما هو معروفٌ من منهج ولاة الأمور وسياستهم الحكيمة الرشيدة وتصريحاتهم، وأقوالهم وطريقتهم الواضحة البيّنة في تعاملهم مع الأمة من جميع أجناس العالم الإسلامي الوافدين إلى الحرمين للحج والعمرة والجوار، أو إلى عامة أطراف المملكة للإقامة والتعلم والعمل والتجارة، وفيهم أرباب المذاهب المختلفة والمشارب المتنوّعة، والأفكار المتعددة المنسوبين للإسلام تحت لواء (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

والمملكة - والحمد لله - تستقبلهم بصدرٍ رَحْب، وتوفر لهم كل أمنٍ وأمان وراحةٍ واطمئنان، وتحفظ لهم حقوقهم المشروعة لهم وتدعوهم إلى الخير وإلى التزام منهج الحق والصواب، منهج أهل السُّنَّة والجماعة والبعد عن كل سوءٍ وشرٍ وفتنةٍ وبدعةٍ وضلالة. وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوسائله المعلومة وطرقه المرسومة التي تناسب كل آمرٍ وكل مأمور بحسب درجته ورتبته وحالته.

وكلهم يعلمون العلم الذي لا شك فيه بأن المملكة العربية

السعودية هي دولة العلم والإيمان، وهي دولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي دولة العقيدة السلفية التي قامت بها وعليها ولا تزال بفضل الله كذلك.

ولكن بعض المُرتزقة يستغل هذا الجو الآمن فيأتي إلى بلادنا هذه ليتعلم ويدرس وإذا به يَنْقل إلينا همومه وغمومه، ومشكلاته وظلماته وما يدور في بلاده من فتنٍ وخلافات، ثم يستجيب له بعض إخواننا في الجامعات السعودية غفلةً منه (وهي غفلة الصالحين) واستغفالاً من ذلك المُرتزق الوافد الغريب...

أقول يستجيب له بعض إخواننا الكرام في بعض الجامعات، فيفتح له الباب ويحتضنه في بحثه أو مقالاته أو رسالته الجامعية التي ينال بها أعلى الدرجات وأعظم المراتب والأوسمة بكتابٍ يهجم فيه على قومه، ويفتح النار على أهل مذهبه ممن هو منهم وقد كان معهم.

فهذا إفريقي مثلاً يتخذ بلادنا وجامعاتنا مصدراً ليفتح نار التكفير والتضليل على جماعته الأفارقة، ومثله مغربي أو شنقيطي أو سوداني أو أفغاني . . الخ.

وهذا أشعريٌ أو ماتريديٌ يلجأ إلينا، وإذا به يخرج على الأمة بصكوك التكفير للأشاعرة والماتريدية على وجه العموم، وفيهم كبار رجال العلم والمعرفة من السلف والخلف أمثال النووي وابن حجر.

وهذا حنفي (هندي أو أفغاني) وهذا مالكي (مغربي أو شنقيطي)

وهذا شافعي (يماني أو مصري) ممن احتضنتهم بلادنا واستقبلتهم جامعاتنا وأنفقت عليهم دولتنا الأموال الطائلة، نراهم يخرجون علينا وعلى الأمة برسائل جامعية يخلعون فيها ألقاب التكفير والتضليل والتفسيق والتبديع لعلماء الأمة وأئمتها من الحنفية أو المالكية أو الشافعية أو الحنابلة، وهم من أهل بلدهم ومن جماعتهم.

ولا يبعد أن يكون (هذا المؤلف المرتزق الوافد الدخيل) منهم، بل ومن العناصر الأصيلة فيهم، وكل ذلك لينال عندنا مقاماً كريماً ويفوز فوزاً عظيماً ويتحصل على الشهادة السامية والدرجة العالية مُتقرباً ومُتزلفاً مُستغلاً ساحتنا الإسلامية وعقيدتنا السلفية، وتشجيع دولتنا للعلماء وترحيبها بطلاب العلم والباحثين واستقبالها للاّجئين واللاّئذين الذين أخرجوا من بلادهم ظلماً وعدواناً وهدّدوا في ديارهم وهم بين أهليهم، فلم يكن لهم بعد الله إلا هذا البلد المضياف، وهذه الساحة المشرفة المكرمة المطهرة العزيزة المحفوظة التي لم تكن ولن تكون أبداً مركزاً للهجوم والتجريح أو التكفير والتضليل والتبديع والتفسيق، وليست منبراً يتكلم منه أرباب المصالح الخاصة والمنافع الشخصية لتحقيق أغراضهم الدنيئة من باب سب وشتم أصحابهم وأهل بلادهم وجماعة مذهبهم بدعوى محبة السلفية والانتصار لها والجهاد من أجلها!!! سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

ولنختم هذا المبحث بخلاصة محاضرة فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين التي ألقاها في القصيم:

كتب محمد الطويان من بريدة:

أوصى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين طلاب كليتي الشريعة وأصول الدين والعلوم العربية والاجتماعية بالقصيم بتقوى الله عز وجل في طلب العلم وجعله خالصاً لوجه الله تعالى، واحترام وتقدير العلماء والأساتذة، والأخذ من علمهم والتأسي بأخلاقهم وحرصهم على اتباع هدى الرسول ﷺ في جميع العقيدة، وأن يكون تصرفهم الدعوي والمنهجي قائماً على الحكمة والنظر إلى العواقب لأن العبرة بإكمال الغاية لا بالابتداء.

جاء ذلك في المحاضرة التي ألقاها فضيلته على الطلاب صباح الإثنين، حذرهم فيها من الانحراف وراء التيارات الفاسدة التي تخالف الشرع الحنيف.

وفي نهاية اللقاء أجاب فضيلته عن تساؤلات واستفسارات الطلاب حيث دار التساؤل حول التكفير والتحزب الديني، فحذر فضيلته الطلاب وكل مسلم من الوقوع في هذا الداء العضال، وهو التكفير. وذكر بعض الأدلة من الكتاب والسُّنَّة موضحاً أن من حكم على إنسانٍ بالكفر وهو ليس كذلك، فيكون هو الكافر والعياذ بالله.

وشدد على النهي من تكفير الحكام والعلماء، لأن التعدي على هؤلاء بمثل هذا القول يعود ضرره على الأمة بكاملها. وذلك لعظم ما يحملونه من العلم بالنسبة للعلماء، ولأهمية ما يقوم به الحكام من تنفيذٍ لأحكام الله والقيام على شرعه.

وبالنسبة للتحزب، فقد ذكر فضيلته أن ذلك ليس من الإسلام في شيء، وهو يُخالف النصوص الشرعية القاطعة التي تنص على الاجتماع والاتفاق، وأن الطريق الصحيح هو سلوك منهج أهل السُّنَة والجماعة والسلف الصالح بدون غلو ولا تفريط[1].

* * * * *

(١) انتهى من جريدة عكاظ - العدد ١٠٨٧٤، الثلاثاء ٤محرم ١٤١٧هـ الموافق ٢١ مايو ١٩٩٦م.

ميزان الإيمان

يُخطىء كثيرٌ من الناس - أصلحهم الله - في فهم حقيقة الأسباب التي تُخرج صاحبها عن دائرة الإسلام وتوجب عليه الحكم بالكفر، فتراهم يسارعون إلى الحكم على المسلم بالكفر لمجرد المخالفة حتى لم يبق من المسلمين على وجه الأرض إلا القليل، ونحن نتلمس لهؤلاء العذر تحسيناً للظن، ونقول: لعل نيتهم حسنة من دافع واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن فاتهم أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد في أدائه من الحكمة والموعظة الحسنة، وإذا اقتضى الأمر المجادلة، يجب أن تكون بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ . . وذلك أدعى إلى القبول، وأقرب للحصول على المأمول، ومخالفته خطأٌ وحماقة.

فإذا دعوت مسلماً يُصلي، ويُؤدي فرائض الله، ويجتنب محارمه، وينشر دعوته، ويُشيد مساجده، ويُقيم معاهده، إلى أمرٍ تراه حقاً ويراه هو على خلافك والرأي فيه بين العلماء مختلف قديماً إقراراً وإنكاراً فلم يطاوعك في رأيك فرميته بالكفر لمجرد مخالفته لرأيك فقد قارفت عظيمة نكراء، وأتيت أمراً إدّاً نهاك عنه الله ودعاك إلى الأخذ فيه بالحكمة والحُسنى.

وإن الحكم على المسلم بالكفر في غير هذه المواطن التي بيناها أمرٌ خطير، وفي الحديث: «إذا قال الرجل لأخيه: ياكافر، فقد باء بها أحدهما»[1].

ولا يصح صدوره إلا ممن عرف بنور الشريعة مداخل الكفر ومخارجه، والحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان في حكم الشريعة الغراء.

فلا يجوز لأي إنسان الركض في هذا الميدان والتكفير بالأوهام والمظان دون تثبتٍ ويقين وعلمٍ راسخٍ متين، وإلا اختلط سيلها بالأبطح ولم يبق مسلمٌ على وجه الأرض إلا القليل.

كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصي مع الإيمان والإقرار بالشهادتين، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال ﷺ:

«ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمَّن قال: لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ولا نخرجه عن الإسلام بالعمل، والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار»[2].

وكان إمام الحرمين يقول: لو قيل لنا: فصِّلُوا ما يقتضي التكفير من العبارات مما لا يقتضي، لقلنا: هذا طمعٌ في غير مطمع، فإن هذا بعيد المدرك وعر المسلك يستمد من أصول التوحيد، ومن لم

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة.
(٢) أخرجه أبو داود.

سِبَابُ المسلم فسوق وقتاله كفر

اعلم أن كراهة المسلمين ومُقاطعتهم ومُدابرتهم محرمة، وكان سِبَابُ المسلم فسوقاً وقتاله كفراً إذا استحل.

وكفى رادعاً في هذا الباب حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه في سريّته إلى بني جذيمة يدعوهم إلى الإسلام، فلما انتهى إليهم تلقوه، فقال لهم: أسلموا، فقالوا: نحن قومٌ مسلمون، قال: فألقوا سلاحكم وانزلوا، قالوا: لا والله، مابعد وضع السلاح إلا القتل، مانحن بآمنين لك ولا لمن معك، قال خالد: فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا، فنزلت فرقةٌ منهم وتفرقت بقية القوم.

وفي رواية: انتهى خالد إلى القوم فتلقوه، فقال لهم: ما أنتم أي: أمسلمون أم كفار؟ قالوا: مسلمون، قد صلينا وصدقنا بمحمد ﷺ وبنينا المساجد في ساحتنا وأذنا فيها.

وفي لفظ: لم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا، قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة، فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح فوضعوا، فقال: استأسروا، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم في أصحابه، فلما كان السحر نادى منادي خالد: من كان معه أسيرٌ فليقتله، فقتل بنو سليم من كان معهم وامتنع المهاجرون والأنصار

رضي الله عنهم، وأرسلوا أسراهم. فلما بلغ النبي ﷺ مافعل خالد، قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، قال ذلك مرتين.

وقد يقال: إن خالداً فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأَنَفَة وعدم الانقياد إلى الإسلام، وإنما أنكر عليه ﷺ العجلة وعدم التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا، فخالد معذور كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام: «نِعْمَ عبد الله أخو العشيرة خالد بن الوليد سيفٌ من سيوف الله سله الله على الكافرين والمنافقين».

وكذلك قصة أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله وابن حِبِّه فيما رواه عنه البخاري عن أبي ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «يا أسامة! أقتلته بعد ماقال لا إله إلا الله»، قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت ذلك اليوم.

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا شققت على قلبه، فتعلم أصادق أم كاذب؟».

قال أسامة: لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله.

وقد سئل علي - رضي الله عنه - عن المخالفين له من الفرق أكفار هم؟ قال: لا، إنهم من الكفر فروا، فقيل: أمنافقون هم؟

فقال: لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، فقيل: أي شيء هم؟ قال: قومٌ أصابتهم الفتنة فعموا وصمُّوا.

* * * * *

أقوال السلف وبعض العلماء في التحذير من التكفير

روى أبو يعلى والطبراني في «الكبير» أن رجلاً سأل جابراً رضي الله عنه هل كنتم تدعون أحداً من أهل القبلة مشركاً؟ قال: معاذ الله، ففزع لذلك. قال: هل كنتم تدعون أحداً منهم كافراً؟ قال: لا.

وروى أبو يعلى عن يزيد الرقاشي أنه قال لأنس بن مالك: يا أبا حمزة! إن ناساً يشهدون علينا بالكفر والشرك قال: أولئك شَرُّ الخلق والخليقة[1].

قال الإمام أحمد: إن الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله، ليس لأحدٍ في هذا حكم، وإنما على الناس إيجاب ما أوجبه الله ورسوله، وتحريم ماحرمه الله ورسوله، وتصديق ما أخبر الله به ورسوله[2].

وقال الطحاوي - رحمه الله - هم أهل القبلة: ولا نشهد عليهم بكفرٍ ولا بشركٍ ولا بنفاقٍ مالم يظهر منهم شيءٌ من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى، وذلك لأنا قد أُمِرنا بالحكم بالظاهر، ونُهينا عن الظن واتباع ماليس لنا به من علم[3].

---

(١) مجمع الزوائد ١: ١٠٧.
(٢) مجموع الفتاوى ٥: ٥٥٤.
(٣) العقيدة الطحاوية ص٤٢٧.

وقال الغزالي - رحمه الله - والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه: الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم[1].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: الكفر من الأحكام الشرعية، وليس كل من خالف شيئاً علم بنظر العقل يكون كافراً، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول، لم يُحكم بكفره حتى يكون قوله كُفراً في الشريعة[2].

وقال أبو بطين: وبالجملة؛ فيجب على من نصح نفسه أن لا يتكلم في هذه المسألة إلا بعلمٍ وبرهانٍ من الله ، وليحذر من إخراج رجل من الإسلام لمجرد فهمه واستحسان عقله، فإن إخراج رجل من الإسلام أو إدخاله فيه أعظم أمور الدين، وقد كُفينا بيان هذه المسألة كغيرها، بل حكمها في الجملة أظهر أحكام الدين، فالواجب علينا الاتباع وترك الابتداع[3].

فاتضح لنا مما سبق من نصوص الكتاب والسُّنّة، وأقوال الصحابة ومن سار على طريق السلف من العلماء المتقدمين والمتأخرين، أن

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص١٥٧.

(٢) مجموع الفتاوى ١٢: ٥٢٥.

(٣) رسالة الكفر الذي يعذر صاحبه بالجهل وحكم من يكفر غيره من المسلمين. لابي بطين ص٢١.

وقال الغزالي - رحمه الله - والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه: الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم[1].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: الكفر من الأحكام الشرعية، وليس كل من خالف شيئاً علم بنظر العقل يكون كافراً، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول، لم يُحكم بكفره حتى يكون قوله كُفراً في الشريعة[2].

وقال أبو بطين: وبالجملة؛ فيجب على من نصح نفسه أن لا يتكلم في هذه المسألة إلا بعلمٍ وبرهانٍ من الله ، وليحذر من إخراج رجل من الإسلام لمجرد فهمه واستحسان عقله، فإن إخراج رجل من الإسلام أو إدخاله فيه أعظم أمور الدين، وقد كُفينا بيان هذه المسألة كغيرها، بل حكمها في الجملة أظهر أحكام الدين، فالواجب علينا الاتباع وترك الابتداع[3].

فاتضح لنا مما سبق من نصوص الكتاب والسُّنّة، وأقوال الصحابة ومن سار على طريق السلف من العلماء المتقدمين والمتأخرين، أن

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص١٥٧.

(٢) مجموع الفتاوى ١٢: ٥٢٥.

(٣) رسالة الكفر الذي يعذر صاحبه بالجهل وحكم من يكفر غيره من المسلمين. لابي بطين ص٢١.

الحكم على المسلم بالخروج عن دين الإسلام، أو الدخول في الكفر لا ينبغي أن يُقْدِمَ عليه مسلمٌ يؤمن بالله واليوم الآخر إلا ببرهانٍ أوضح من شمس النهار. وحتى من ثبت لنا كفره ببرهانٍ واضح، فرأينا منه كفراً بواحاً، فإنا نحكم عليه بالكفر مع احتياطٍ وتحرّزٍ في اللفظ، فلا نتعدى الإطلاق الذي أطلقه الكتاب والسُّنّة، ولا نتعدى منهج السلف في التكفير، فقد كانوا يعرضون ماظهر من الناس على ماجاء في الكتاب والسُّنّة، فإن وجدوا فيهما إطلاق الكفر أطلقوه، وإن لم يجدوا توقفوا وحكموا على القائل أو الفاعل بالخطأ والذنب العظيم، ثم إنه يستفسر هذا القائل أو الفاعل عن مراده، فإن اتضح أنه يُريد الكفر حكم عليه به، وإلا اكتفى بإطلاق الخطأ أو المخالفة أوالفسق عليه دون التكفير الاعتقادي[1].

* * * * *

(١) انظر هذه النصوص والخلاصة في رسالة: «ضوابط التكفير» للدكتور حسن العواجي مع التصرف المناسب.

مقام الخالق ومقام المخلوق

إن الفرق بين مقام الخالق والمخلوق هو الحدُّ الفاصل بين الكفر والإيمان، ونعتقد أن من خلط بين المقامين فقد كفر -والعياذ بالله-.

ولكل مقامٍ حقوقه الخاصة، ولكن هناك أمورٌ ترد في هذا الباب وخصوصاً فيما يتعلق بالنبي ﷺ وخصائصه التي تميزه عن غيره من البشر وترفعه عليهم، هذه الأمور قد تشتبه على بعض الناس لقصر عقولهم وضعف تفكيرهم وضيق نظرهم وسوء فهمهم، فيبادرون إلى الحكم بالكفر على أصحابها وإخراجهم عن دائرة الإسلام ظناً منهم أن في ذلك تخليطاً بين مقام الخالق والمخلوق، ورفعاً لمقام النبي ﷺ إلى مقام الألوهية، وإننا نبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك.

وإننا بفضل الله تعالى نعرف مايجب لله تعالى، ومايجب لرسوله ﷺ، ونعرف ماهو محض حقّ لله تعالى، وماهو محض حقٌّ لرسوله ﷺ من غير غلو ولا إطراء يصل إلى حدّ وصفه بخصائص الربوبية والألوهية في المنع والعطاء والنفع والضر الاستقلالي (دون الله تعالى) والسلطة الكاملة والهيمنة الشاملة والخلق والملك والتدبير والتفرد بالكمال والجلال والتقديس والتفرد بالعبادة بمختلف أنواعها وأحوالها ومراتبها.

أما الغلو الذي يعني التغالي في محبته وطاعته والتعلق به، فهذا

محبوبٌ ومطلوبٌ كما جاء في الحديث: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»..

والمعنى: أن إطراءه والتغالي فيه والثناء عليه بما سوى ذلك هو محمود، ولو كان معناه غير ذلك لكان المراد هو النهي عن إطرائه ومدحه أصلاً، ومعلومٌ أن هذا لا يقوله أجهل جاهل في المسلمين، فإن الله تعالى عظّم النبي ﷺ وأمر بتعظيمه في القرآن بأعلى أنواع التعظيم، فيجب علينا أن نُعظّم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه.. نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيءٍ من صفات الربوبية، ورحم الله القائل حيث قال:

دع ماادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فليس في تعظيمه ﷺ بغير صفات الربوبية شيءٌ من الكفر والإشراك، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكالملائكة والصديقين والشهداء والصالحين.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

ومن ذلك الكعبة المعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام، فإنها أحجار، وأمرنا الله تعالى بتعظيمها لإنها من الشعائر والحرمات المنصوص عليها كما جاء في القرآن وذلك يكون

بالطواف بالبيت ومس الركن اليماني، وتقبيل الحجر الأسود، وبالصلاة خلف المقام وبالوقوف للدعاء عند المستجار وباب الكعبة والملتزم، ونحن في ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى، ولم نعتقد تأثيراً لغيره ولا نفعاً ولا ضراً، فلا يثبت شيء من ذلك لأحدٍ سوى الله تعالى.

* * * * *

مقام المخلوق

أما هو ﷺ فإننا نعتقد أنه ﷺ بشرٌ يجوز عليه ما يجوز على غيره من البشر من حصول الأعراض والأمراض التي لا تُوجب النقص والتنفير، كما قال صاحب العقيدة:

وجائز في حقهم من عرض بغير نقص كخفيف المرض

وأنه ﷺ عبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً إلا ماشاء الله.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

وأنه ﷺ قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وكشف الغُمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

وقال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾.

والعبودية هي أشرف صفاته ﷺ، ولذلك فإنه يفتخر بها ويقول: «إنما أنا عبد» ووصفه الله بها في أعلى مقام ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾.

وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾.

والبشرية هي عين إعجازه، فهو بشرٌ من جنس البشر، لكنه متميزٌ عنهم بما لا يلحقه به أحدٌ منهم أو يساويه، كما قال ﷺ عن نفسه في الحديث الصحيح: « إني لست كهيئتكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»...

وبهذا ظهر أن وصفه ﷺ بالبشرية يجب أن يقترن بما يميزه عن عامة البشر من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة، وهذا ليس خاصاً به ﷺ، بل هو عامٌ في حق جميع رسل الله سبحانه وتعالى لتكون نظرتنا إليهم لائقة بمقامهم، وذلك لأن ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرةٌ جاهليةٌ شركيةٌ، وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك، فمن ذلك قول قوم نوح عليه السلام في حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾.

ومن ذلك قول قوم موسى وهارون عليهما السلام في حقهما فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾.

ومن ذلك قول ثمود لنبيهم صالح عليه السلام فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب عليه السلام فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

ومن ذلك قول المشركين في حق سيدنا محمد ﷺ وقد رأوه بعين

البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ولقد تحدث رسول الله ﷺ عن نفسه حديث الصدق بما أكرمه الله تعالى به من عظيم الصفات وخوارق العادات التي تميز بها عن سائر أنواع البشر.

فمن ذلك ماجاء في الحديث الصحيح أنه قال: «تنام عيناي ولا ينام قلبي».

وجاء في الحديث الصحيح أنه قال: «إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي».

وجاء في الصحيح أنه قال: «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض».

وهو ﷺ وإن كان قد مات إلا أنه حيٌّ حياةً برزخيةً كاملة، يسمع الكلام ويرد السلام، وتبلغه صلاة من يُصلي عليه، وتُعرض عليه أعمال الأمة فيفرح بعمل المحسنين ويستغفر للمسيئين، وأن الله حرم على الأرض أن تأكل جسده، فهو محفوظٌ من الآفات والعوارض الأرضية.

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من أفضل أيامكم يوم الجمعة: فيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ». قالوا: يارسول الله! وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت، يعني بليت؟ فقال: «إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»..

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» والحاكم وصححه.

وفي ذلك رسالةٌ خاصة للحافظ جلال الدين السيوطي أسماها «إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم تعرض عليَّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم».

قال الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام».

رواه أحمد وأبو داود.

قال بعض العلماء: رد عليّ روحي: أي نطقي.

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وكل بقبري ملكاً أعطاه الله أسماع الخلائق، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه، هذا فلان بن فلان قد صلى عليك».

رواه البزار وأبو الشيخ ابن حبان ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تبارك وتعالى ملكاً أعطاه أسماع الخلائق فهو قائم على قبري إذا مت، فليس أحد يصلي عليّ إلا قال: يامحمد! صلى عليك فلان بن

فلان، قال: فيصلي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً». رواه الطبراني في «الكبير» بنحوه.

وقد ذكر الإمام السبكي أنه جاء بروايتين: أسماء الخلائق، وأسماع الخلائق[1].

وهو ﷺ وإن كان قد مات إلا أن فضله ومقامه وجاهه عند ربه باقٍ لا شك في ذلك ولا ريب عند أهل الإيمان، ولذلك فإن التوسل به إلى الله سبحانه وتعالى إنما يرجع في الحقيقة إلى اعتقاد وجود تلك المعاني واعتقاد محبته وكرامته عند ربه وإلى الإيمان به وبرسالته، وليس هو عبادةً له، بل إنه مهما عظمت درجته وعلت رتبته فهو مخلوقٌ لا يضر ولا ينفع من دون الله إلا بإذنه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

* * * * *

(١) شفاء السقام ص ٤٦.

أمور مشتركة بين المقامين
لا تنافي التنزيه

وقد أخطأ كثيرٌ من الناس في فهم بعض الأمور المشتركة بين المقامين (مقام الخالق ومقام المخلوق) فظن أن نسبتها إلى مقام المخلوق شركٌ بالله تعالى.

ومن ذلك بعض الخصائص النبوية مثلاً، التي يُخطىء بعضهم في فهمها ،فيقيسونها بمقياس البشرية، ولذلك يستكثرونها ويستعظمونها على رسول الله ﷺ، ويرون أن وصفه بها معناه وصفه ببعض صفات الألوهية، وهذا جهلٌ محضٌ، لأنه سبحانه وتعالى يُعطي من يشاء وكما يشاء بلا مُوجبٍ مُلزم، وإنما هو تفضلٌ على من أراد إكرامه ورفع مقامه، وإظهار فضله على غيره من البشر، وليس في ذلك انتزاعٌ لحقوق الربوبية وصفات الألوهية، فهي محفوظةٌ بما يُناسب مقام الحق سبحانه وتعالى، وإذا اتصف المخلوق بشيءٍ منها فيكون بما يناسب البشرية من كونها محدودة مكتسبة بإذن الله وفضله وإرادته ، لا بقوة المخلوق ولا تدبيره ولا أمره، إذ هو عاجزٌ ضعيفٌ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وكم من أمور جاء مايدل على أنها حقٌ لله سبحانه وتعالى، ولكنه سبحانه وتعالى منَّ بها على نبيه ﷺ وغيره.

وحينئذٍ فلا يرفعه وصفه بها إلى مقام الألوهية، أو يجعله شريكاً لله سبحانه وتعالى.

فمنها: الشفاعة، فهي لله، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، وهي ثابتة للرسول ﷺ ولغيره من الشفعاء بإذن الله كما جاء في الحديث: «أوتيت الشفاعة».. وحديث: «أنا أول شافع ومشفع»..

ومنها: علم الغيب، فهو لله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقد ثبت أن الله تعالى علم نبيه من الغيب ماعلمه وأعطاه ما أعطاه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾.

ومنها: الهداية، فهي خاصة بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، وقد جاء أنه ﷺ له شيء من ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، والهداية الأولى غير الهداية الثانية، وهذا إنما يفهمه العقلاء من المؤمنين الذين يعرفون الفرق بين الخالق والمخلوق، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول: وإنك لتهدى هداية إرشاد، أو أن يقول: وإنك لتهدى هداية غير هدايتنا، ولكن كل ذلك لم يحصل.

بل أثبت له هدايةً مطلقةً بلا قيدٍ ولا شرط، لأن الموحد منا معشر المخاطبين من أهل الإسلام يفهم معاني الألفاظ ويدرك اختلاف مدلولاتها بالنسبة لما أُضيف إلى الله، وبالنسبة لما أضيف إلى رسول الله ﷺ، ونظير هذا ماجاء في القرآن من وصف رسول الله ﷺ بالرأفة

والرحمة. إذ يقول تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بذلك أيضاً في أكثر من موضع، فهو سبحانه وتعالى رؤوفٌ رحيم، ومعلوم أن الرأفة والرحمة الثانية غير الأولى، ولما وصف نبيه ﷺ بذلك الوصف وصفه به بالإطلاق بلا قيد ولا شرط، لأن المخاطب وهو موحدٌ مؤمنٌ بالله، يعلم الفرق بين الخالق والمخلوق، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول في وصفه ﷺ رؤوفٌ برأفة غير رأفتنا، ورحيمٌ برحمة غير رحمتنا، أو أن يقول: رؤوفٌ برأفةٍ خاصة أو رحيمٌ برحمةٍ خاصة، أو أن يقول: رؤوفٌ برأفةٍ بشرية ورحيمٌ برحمة بشرية، ولكن كل ذلك لم يحصل، بل أثبت له رأفةً مطلقةً ورحمةً مطلقةً بلا قيد ولا شرط، فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * * * *

العوام ومباحث الصفات في العقيدة

ومن أعظم الفتن التي بلينا بها ممن يدعي السلفية وهم أبعد الناس عن حقائقها وآدابها، ما يظهر على الساحة اليوم من كتب ومحاضرات تشغل الناس وأكثرهم من العوام، تشغلهم بمباحث عويصة ومشكلة في العقيدة، مباحث زلت فيها الأقدام، وضلت فيها الأفهام، وماثبت فيها إلا الأئمة الأعلام، وهي مباحث الصفات وغيرها مما يدور في هذا الباب.

قال العلماء: من أعظم الفتن سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلام الله وعن الحروف وأنها قديمةٌ أو محدثة، وعن الاستواء والنزول واليد، وماهو، وكيف هو، والردود الواردة في هذا المجال، والعامي يفرح بالخوض في هذا العلم، إذ الشيطان يخيل إليه أنه من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر، وهو لا يدري، وقد تكون الكبيرة التي يرتكبها العامي أسْلَمَ له من أن يتكلم في هذا الباب من العلم الذي يتعلق بالله وصفاته، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم بما جاء به الرسل من غير بحث، وسؤالهم عن غير مايتعلق بالعبادات سوء أدبٍ منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر، وهو كسؤال ساسة

الدواب عن أسرار الملوك وهو موجبٌ للعقوبة، وكل من سأل عن علمٍ غامضٍ ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم، فإنه بالإضافة إليه عامي، ولذلك قال ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح «ذروني ماتركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

وفي الحديث المتفق عليه: «نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال».

وجاء في الصحيحين قال ﷺ: «يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا: قد خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، حتى تختموا السورة، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم».

فاشتغال العوام بمسائل العقيدة العلمية التي تحتاج إلى أهلية من أعظم الآفات، وهو من المُثيرات للفتن، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم في حروف القرآن يُضاهي حال من كتب الملك إليه كتاباً ورسم له فيه أموراً ، فلم يشتغل بشيءٍ منها، وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيقٌ أم حديث، فاستحق بذلك العقوبة لا محالة، فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة، وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى.

قال العلماء: وليس المراد بالعوام السُّوقية والأجلاف من أهل السواد فقط، بل في معنى العوام الأديب والنحوي والفيلسوف

والمتكلم، بل كل عالمٍ سوى المتجردين لعلم السباحة في بحار المعرفة، القاصرين أعمارهم عليه، الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات، المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات، المخلصين لله تعالى في العلوم والأعمال، القائمين بجميع حدود الشريعة وآدابها في القيام بالطاعات وترك المنكرات، المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله، المستحقرين للدنيا بل للآخرة في جنب محبة الله تعالى، فهؤلاء هم أهل المعرفة والأهلية، وهم مع ذلك كله على خطرٍ عظيم يهلك من العشرة تسعة إلى أن يسعد واحدٌ منهم بالمعرفة والفقه والدين والفتح المبين.

*****

من شُعب التكفير
الكِبر والعُجب والاحتقار

من الظواهر الواضحة التي تميز بها هؤلاء المُكفرون للمسلمين أو قُل: هؤلاء المسارعون إلى تكفير كل من يُخالفهم أو يُعارضهم فيما يرون أو يعتقدون.

من الظواهر التي لا تُنكر إعجابهم بأنفسهم وأعمالهم، والعُجب هو بدايةٌ خطيرةٌ لأقبح خُلُقٍ نهى عنه الإسلام وحذر منه، إنه الكِبْرُ الذي تميز به أول كافرٍ في الخلق وهو (إبليس) حيث رأى أنه خيرٌ من آدم وأُعْجِبَ بعمله، وكان له فيه رصيدٌ كبيرٌ واجتهاد عظيمٌ.

قال الإمام القرطبي: كان إبليس من خُزان الجنة، وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا، وكان له سلطانها وسلطان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، وكان يسوس مابين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمةً، فذلك دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شيطاناً رجيماً، فإذا كانت خطيئة الرجل في كبرٍ فلا ترجه، وإن كانت خطيئته في معصيةٍ فارجه، وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية، وخطيئة إبليس كِبراً[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (سورة البقرة).

قلت: وهذا العُجب هو الذي دعاه إلى رؤية نفسه فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾. وإلى احتقار آدم والاستهانة به فقال: ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فتكبر وكان من الكافرين كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

* * * * *

لذلك كان المتكبر بغيضاً إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

والخيلاء والفخر من أوصاف المتكبرين، والمُتكبر متعرضٌ لأن يطبع الله على قلبه كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

والمُتكبر مصروفٌ عن آيات الله كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وذم الكِبر في القرآن كثيرٌ.

أما في السُّنَّة المشرفة فقد جاء في ذم الكبر أحاديث نبوية وقدسية

فمنها: قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال ﷺ: يقول الله تعالى: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منها ألقيته في جهنم ولا أبالي) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه في كتاب الزهد «باب البراءة من الكبر والتواضع ج ٢/ص ١٣٩٨»، وابن حبان في

صحيحه عن ابن عباس. ورواه أيضاً مسلم في كتاب البر والصلة والأدب «باب تحريم الكبر ج٨ / ص٣٦ » بلفظ (العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من إيمان ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء» رواه مسلم في «صحيحه» ج ١ / ص٦٥ .

* * * * *

من علامات الكِبْر

والكِبْر إنما يكون في القلب. ولكن له علاماتٌ في الظاهر تدل عليه.

فمنها: حُبُّ التقدم على الناس وإظهار الترفع عليهم، وحُبُّ التصدر في المجالس، والتبختر والاختيال في المشية، والاستنكاف من أن يُرد عليه كلامه وإن كان باطلاً، والامتناع من قبوله، والاستخفاف بضعفة المسلمين ومساكينهم.

ومنها: تزكية النفس والثناء عليها، والفخر بالآباء من أهل الدين والفضل، والتبجّح بالنسب، وذلك مذمومٌ ومستقبحٌ جداً، وقد يُبتلى به بعض أولاد الأخيار ممن لا بصيرة له ولامعرفة بحقائق الدين.

ومن افتخر على الناس بنسبه وبآبائه ذهبت بركتهم عنه، لأنهم ماكانوا يفتخرون ولا يتكبرون على الناس، ولو فعلوا ذلك لبطل فضلهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه» رواه مسلم في كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ج٨ / ص٧١ واللفظ له.

وعن أبي نضرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على

أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى» الحديث.

وقال الهيثمي في «مجمعه»: ورجاله رجال الصحيح (كتاب الحج - باب الخطب في الحج ج٣ / ص٢٦٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ذكرُه قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرَها بالآباء، مؤمن تقيّ، وفاجر شقيّ، أنتم بنو آدم، وآدمُ من تراب، لَيَدَعنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام، إنما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجِعلانِ[1] التي تَدفع بأنفها النَّتَنَ». رواه أبو داود في كتاب الأدب باب التفاخر بالأحساب ج٢ / ص٦٢٤.

قال الإمام عبد الله بن علوي الحداد:

ثـم لا تغتـر بـالنسـب ... لا ولا تقنـع بكـان أبـي

واتّبع في الهدى خير نبي ... أحمد الهادي إلى السَّنن

* * * * *

(١) الجِعْلان جمع جُعَل وهو دابة سوداء من دواب الأرض

العُجْبُ مفتاح الشرور

أما العُجْبُ فهو مذمومٌ في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ ذكر ذلك في معرض الإنكار.

وقال عز وجل: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ فرد على الكفار بإعجابهم بحصونهم وشوكتهم.

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وهذا أيضاً يرجع إلى العُجْب بالعمل.

وقد يُعْجَبُ الإنسان بعملٍ مخطىءٍ فيه كما يُعْجَبُ بعمل هو مصيبٌ فيه.

وقال ﷺ لأبي ثعلبة الخشني حيث ذكر آخر هذه الأمة وماتؤول إليه من الحوادث والوقائع: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك». رواه أبو داود والترمذي، وحسنه ابن ماجه.

وفي حديث: (أن رسول الله ﷺ كان جالساً في جماعةٍ من أصحابه، فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه، فبينا هم كذلك، إذ طلع عليه الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء، وقد علق نعله بيده، وبين عينيه أثر السجود، فقالوا: يارسول الله! هو هذا الرجل الذي

وصفناه، فقال ﷺ: «أرى على وجهه سفعة من الشيطان». فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم، فقال النبي ﷺ: «نشدتك الله! هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟» فقال: اللهم نعم). رواه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس رضي الله عنه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الهلاك في اثنتين: القَنوط والعُجب.

قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح مُعجباً. أخرجه أبو نعيم في الحلية.

وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه مُحسن. (أي ظَنّ المُعجبين وهو القطع بالإحسان، وهو غير ظن المحسنين فذلك رجاء الإحسان) وقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ والمَنُّ على المتصدق عليه ينتجه استعظام صدقته، واستعظام العمل هو العُجب، لأنه لولا إعجابه به لما عده عظيماً، فظهر بهذا أن العُجب مذمومٌ جداً وهو مفتاح كل شر.

* * * * *

آفات العجب

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله: اعلم أن آفات العُجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العُجب الكِبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد.

وأما مع الله تعالى فالعُجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مُستغنٍ عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها، فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يُغْفَر له، وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويَمُنُّ على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أُعْجِبَ بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصةً نقيةً عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العُجب.

والمُعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عنده مِنَّةً وحقاً بأعماله التي هي نعمةٌ من نعمه وعطيةٌ من عطاياه، ويخرجه العُجب إلى أن يُثني على نفسه ويحمدها ويُزكّيها، وإن أُعجب برأيه وعمله وعقله، منعه ذلك من

الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه.

وربما يُعْجب بالرأي الخاطىء الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره، فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح، ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصرّ على خطئه، فإن كان رأيه في أمرٍ دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمرٍ ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به، ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة، لكان ذلك يُوصله إلى الحق، فهذا وأمثاله من آفات العُجب، فلذلك كان من المهلكات.

ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

* * * * *

العُجب بالرأي الخطأ من فتن هذه الأمة

وقد أخبر ﷺ أن العُجب بالرأي الخاطىء يغلب على آخر هذه الأمة كما جاء في الحديث: «فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك».

وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعُجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقاً، وعلاج هذا العُجب أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأي الخاطىء جاهلٌ بخطئه، ولو عرفه لتركه، ولا يُعالج الداء الذي لا يُعرف، والجهل داءٌ لا يُعرف فتعسر مداواته جداً. لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان مُعجباً برأيه وجهله، فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، فقد سلط الله عليه بليةً تُهلكه وهو يظنها نعمة، فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟.

وإنما علاجه على الجملة أن يكون مُتَّهماً لرأيه أبداً لا يغترّ به، إلا أن يشهد له قاطعٌ من كتابٍ أو سنّة أو دليل عقلٍ صحيحٍ جامعٍ لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحةٍ تامةٍ وعقلٍ ثاقبٍ وجدٍّ وتَشَمّرٍ في طلب العلم وممارسة للكتاب والسنّة، ومجالسةٍ لأهل العلم طول

العمر، ومدارسةٍ للعلوم، ومع ذلك فلا يُؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يُصغي إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحدٌ لا شريك له وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأن رسوله صادقٌ فيما أخبر به ويتبع سُنَّة السلف، ويُؤمن بجملة ماجاء به الكتاب والسُّنّة من غير بحثٍ وتنقيبٍ وسؤالٍ عن تفصيل، بل يقول: آمنا وصدقنا، ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد والتتبع لأخطاء غيره والتصدي لسقطات الناس هلك من حيث لا يشعر، وهذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم.

فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مُهمٍ له معرفة الدليل وشروطه، وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديدٌ لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى، وهو عزيز الوجود جداً[1].

فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال، ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

* * * * *

(١) انظر الإحياء للإمام الغزالي فقد فصّل الكلام في هذا الباب بالكتاب والسنة مع فهم وبصيرة عالية.

التوحيد أعظم النعم وثمرته الطاعة

ثم اعلم أن التوحيد أعظم النعم وأكبرها، وأنفعها لأهل الدنيا والآخرة، فعلى من أنعم الله به عليه وأكرمه به، أن يعرف قدر نعمة الله بذلك، وأن يسعى في حفظها ودوام الشكر والاغتباط بها، وأن يجتهد في تقوية توحيده وثباته وتأكيده بملازمة الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة، والطاعات الخالصة التي هي من فروع التوحيد وثمرات الإيمان، مع الاحتراز والاجتناب لأضداد ذلك من الأخلاق السيئة والأعمال المنكرة التي هي من مُضعفات الإيمان، ومُوجبات تزلزله واضطرابه حالاً ومآلاً سيما عند الموت.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقال ﷺ كما جاء في الصحيح: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

وكان السلف الصالح رحمهم الله تعالى يقولون: المعاصي بريد الكفر، فليبذل المؤمن نهاية جهده وإمكانه في حفظ إيمانه وتقويته، وتأكيده وتثبيت أركانه، وليستعن بالله وليصبر على ذلك، ويداوم عليه حتى يأتيه اليقين.

الإيمان أحوج مايكون
إلى حسن التعهد والاحتياط

ثم اعلم أن الإيمان هو أصل الأصول، وأنفس النفائس، وأعز الأشياء، وهو مع ذلك أشدها خطراً، وأشقها حفظاً ، وأحوجها إلى حسن التعهد والتفقد، وحسن النظر والاحتياط، وكل عزيز ونفيس فعلى مثل ذلك يكون ويوجد، ولا يزال المؤمن الشفيق على دينه، المُحتاط لإيمانه ويقينه، سائلاً من الله ومتضرعاً إليه في أن يثبته على دينه وإيمانه، وأن لا يُزيغ قلبه بعد إذ هداه إلى التوحيد ومعرفته، وأن يكون خائفاً من سلب ذلك وتزلزله، وقد كان بعض السلف يحلف بالله إنه ما أمن أحدٌ إيمانه أن يُسْلَبَه إلا سُلِبَه، وذُكِرَ عن إبليس لعنه الله أنه قال: قصم ظهري الذي يسأل الله حسن الختام.

أقول: متى يُعْجب هذا بعمله؛ أخشى أنه قد فتن.

فالأمر الذي عليه المدار والتعويل والذي لا ينبغي لعاقلٍ من أهل الإيمان إلا أن يكون أعظم اهتماماً به وأشد حرصاً عليه وسعياً له، هو سلامة التوحيد وحفظ الإيمان، حتى يموت ويخرج من الدنيا على ذلك بفضل الله تعالى وحسن تأييده وتثبيته، فإنه إن خرج من الدنيا على ذلك سلم من الشر كله وفاز بالخير كله دائماً أبداً.

وإن خرج من الدنيا على خلاف ذلك خسر خسراناً مبيناً ، وهلك

هلاكاً مؤبداً والعياذ بالله.

فعقد التوحيد والإيمان هو الذي لا ينفع مع فقده شيءٌ بحالٍ كائناً ذلك الشيء ماكان، ولو كان عمل الأولين والآخرين، وحيث بقي مع العبد توحيده وإيمانه وسلما له، فليس يضره شيءٌ ولو كان عاصياً مذنباً ، فإما أن يغفر الله له أو يعفو عنه، وإن عاقبه على ذنبه كانت عقوبةً منقضيةً غير مخلدة ولا مؤبدة؛ فإنه لا يخلد في النار مؤمن، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

* * * * *

الدعاء بالموت على الإيمان

وقد أمر الله عباده المؤمنين بأن يموتوا على الإيمان والإسلام، ووصف أنبياءه ورسله والصالحين من عباده بأنهم يسألونه ذلك ويدعونه به ويتواصون به حرصاً عليه وإعظاماً له واغتباطاً به.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وقال تعالى إخباراً عن المؤمنين من السحرة حين توعدهم فرعون لعنه الله: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾.

* * * * *

البشارة لأهل التوحيد بالنجاة والفوز

وقد وردت عن رسول الله ﷺ الأحاديث الكثيرة الشهيرة في بشارة أهل التوحيد والإيمان ومن مات وهو لا يشرك بالله شيئاً بالنجاة من النار والفوز بالجنة، وغير ذلك من الخيرات والدرجات.

قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ماكان من العمل».

وفي روايةٍ لمسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار».

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله! ما الموجبات؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار».

وقال ﷺ لمعاذ: «يامعاذ! مامن عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، صادقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار»، قال: يارسول الله! أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ قال: «إذاً يتكلوا» فأخبر معاذ عند موته تأثماً ! أي مخافة من الإثم في كتمان هذا العلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله تعالى».

وقال عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة رضي الله عنه: «اذهب فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة».

* * * * *

لا يجوز البحث عن المنكرات المستورة

واعلم أنه ليس بواجبٍ على أحدٍ أن يبحث عن المنكرات المستورة حتى ينكرها إذا رآها، بل ذلك محرم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

ولقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته..» الحديث.

وإنما الواجب هو الأمر بالمعروف عندما نرى التاركين له في حال تركهم، والإنكار للمنكر كذلك، فاعلم هذه الجملة، فإنا رأينا كثيراً من الناس يغلطون فيها.

ومن المهم أن لا تصدق ولا تقبل كل ما يُنقل إليك من أفعالهم وأقوالهم المنكرة حتى تشاهد ذلك بنفسك، أو ينقله إليك مؤمنٌ تقيٌّ لا يُجازف، ولا يقول إلا الحق، وذلك لأن حسن الظن بالمسلمين أمرٌ لازم.

وقد كثرت بلاغات الناس بعضهم على بعض، وعم التساهل في ذلك وقَلّت المبالاة، وارتفعت الأمانة، وصار المشكور عند الناس من وافقهم على هوى أنفسهم وإن كان غير مستقيمٍ لله، والمذموم عندهم من خالفهم وإن كان عبداً صالحاً، فتراهم يمدحون من لا يَسْتَحق المدح لموافقته إياهم وسكوته على باطلهم، ويذمون من

يخالفهم وينصحهم في دينهم.

هذا حال الأكثر إلا من عصمه الله، فوجب الاحتراز والتحفظ والاحتياط في جميع الأمور، فإن الزمان مفتون، وأهله عن الحق ناكبون، إلا من شاء الله منهم وهم الأقلون.

*****

وجوب الحكمة في الدعوة إلى الحق

واعلم أن الرِفق واللُطف ومجانبة الغِلظة والعُنف أصلٌ كبيرٌ في قبول الحق والانقياد له، فعليك بذلك مع من أمرته أو نهيته أو نصحته من المسلمين، وأحسن السياسة في ذلك، وكلمه خالياً، ولِنْ له جانباً، واخفض له جناحاً، فإن الرفق ماكان في شيءٍ إلا زانه، ولا نزع من شيءٍ إلا شانه، كما قال عليه الصلاة والسلام.

وكما قال الله تعالى لرسوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

* * * * *

النهي عن التفرق والاختلاف

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ نهي من الله لعباده المؤمنين عن التشبه بالمتفرقين المختلفين في دينهم من أهل الكتاب ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذين اختلفوا في دينهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فاستعظم رحمك الله جداً عذاباً سماه الإله العظيم عظيماً، وتفكر فيه وانج بنفسك منه، وذلك بملازمة الكتاب والسنة، ومجانبة الزيغ والبدعة، والآراء المختلفة والأهواء المتفرقة.

* * * * *

الخاتمة في بيان العقيدة التي بها النجاة

وبعد: فإنا والحمد لله قد رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً ورسولاً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً، وتبرأنا من كل دينٍ يُخالف دين الإسلام، وآمنا بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبملائكة الله، وبالقدر خيره وشره، وباليوم الآخر، وبكل ماجاء به محمد رسول الله ﷺ عن الله، على ذلك نحيا وعليه نموت، وعليه نبعث إن شاء الله من الآمنين الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، بفضلك اللهم يارب العالمين.

وقد قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً».

وقال عليه الصلاة والسلام: «من قال حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً، كان حقاً على الله أن يرضيه».

* * * * *

تفسير حديث: «رضيت بالله رباً»

واعلموا معاشر الإخوان، أنه من رضي بالله رباً لزمه أن يرضى بتدبيره واختياره له وبِمُرِّ قَضائه، وأن يقنع بما قسمه له من الرزق، وأن يداوم على طاعته ويحافظ على فرائضه، ويجتنب محارمه، ويكون صابراً عند بلائه، شاكراً لنعمائه، محباً للقائه، راضياً به وكيلاً ووليّاً وكفيلاً، مُخلصاً له في عبادته، ومُعتمداً عليه في غيبته وشهادته، لا يفزع من المهمات إلا إليه، ولا يُعول في قضاء الحاجات إلا عليه سبحانه وتعالى.

ومن رضي بالإسلام ديناً عظم حرماته وشعائره، ولم يزل مجتهداً فيما يؤكده ويزيده رسوخاً واستقامة من العلوم والأعمال، ويكون به مُغتبطاً ومن سلبه خائفاً، ولأهله مُحترماً، ولمن كفر به مُبغضاً ومُعادياً.

ومن رضي بسيدنا محمد ﷺ نبياً، كان به مُقتدياً، وبهديه مُهتدياً، ولشرعه مُتبعاً، وبسنته مُتمسكاً، ولِحقِّه مُعظماً، ومن الصلاة والسلام عليه مُكثراً، ولأهل بيته وأصحابه مُحباً، وعليهم مُترضياً مُترحماً، وعلى أمته مُشفقاً ولهم ناصحاً.

فينبغي لك أيها المؤمن أن تُطالب نفسك بتحقيق هذه المعاني التي ذكرناها في معنى قولك: «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ

نبياً» وكلف نفسك الاتصاف بها، ولا تقنع منها بمجرد القول، فإنه قليل الجدوى، وإن كان لا يخلو عن منفعة.

وكذلك فافعل في جميع ماتقوله من الأذكار والأدعية ونحوها، وطالب نفسك بحقائقها والاتصاف بمعانيها.

مثال ذلك: أن تكون عند قولك: (سبحان الله) ممتلىء القلب بتنزيه الله وتعظيمه.

وعند قولك: (الحمد لله) ممتلىء القلب بالثناء على الله تعالى وشكره.

وعند قولك: (رب اغفر لي) ممتلئاً من الرجاء في الله أن يغفر لك، ومن خوفه أن لا يغفر لك، فقس على ذلك.

واجتهد في الحضور مع الله، وتدبر معاني ماتقوله، واجتهد في الاتصاف بما يحبه الله منك، والاجتناب لما يكرهه.

* * * * *

نصوصٌ نبوية في بيان الإسلام وصفة المسلم الحق

نذكر في هذا المبحث جملةً من الأحاديث النبوية المختارة التي تبين حقيقة الإسلام والمسلم والميزان الحق الذي يُوزن به ويُعتبر معصوماً دمه وماله وعرضه محفوظاً، له حقوق المسلمين وعليه ماعليهم، ومعلومٌ أن هذه الموازين إنما تُؤخذ من الكتاب والسُّنَّة الذي بَيّن الحق والباطل والخير والشر، كما جاء به النور المبين عن الله جل جلاله وعظم شأنه، فهو الذي يحكم ويقضي، وهو الذي لا يصح لأحدٍ أن يزيد على حكمه وقضائه شيئاً ولا ينقص منه شيئاً لكمال الشريعة وعدم حاجتها لمن يكمل موازينها العامة وأصولها المعتمدة المتفق عليها، نعم.. باب الاجتهاد مفتوح، ولكن في غير هذا المجال والميدان الذي لا حكم فيه ولا قول إلا لله ورسوله ﷺ.

وإليك بعض هذه النصوص:

أحاديث نبوية في الموضوع

عن عمر رضي الله تعالى عنه أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»... إلى آخر الحديث.

وفيه: «يا عمر! أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». رواه مسلم في كتاب الإيمان ١ / ٢٩».

وروى البخاري نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب «الإيمان» باب «سؤال جبريل النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان» ١/ ١٨.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

رواه البخاري في كتاب الإيمان «باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس» ١/ ٨.

ورواه مسلم أيضاً في «كتاب الإيمان» باب «قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس» ١/ ٣٤.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن وفد عبد القيس لما أتَوا النبيَّ ﷺ قال: «مَن القوم؟ أو من الوفد» قالوا: ربيعة، قال: «مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى». قالوا: يارسول الله!

إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمُرنا بأمرٍ فصلٍ نُخبر به من وراءنا وندخل به الجنة.

وسألوه عن الأشربة فأمرهم بأربعٍ ونهاهم عن أربع. أمرهم بالإيمان بالله وحده.

قال: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس».

ونهاهم عن أربع: عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وربما قال: المقيّر. وقال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم».

رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب «أداء الخمس من الإيمان» ١/ ١٩.

وروى مسلم نحوه في كتاب «الإيمان» باب «الإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين» ١/ ٣٥.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم». . . الحديث.

رواه البخاري في كتاب «الزكاة» باب «أخذ الصدقة من الأغنياء

وترد في الفقراء حيث كانوا» ١ / ١١-١٢ .

ورواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لاإله إلا الله محمدٌ رسول الله» ١/ ٣٨ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» .

رواه البخاري في كتاب «الإيمان» باب «قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ -١/ ١١-١٢ .

ورواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لاإله إلا الله محمد رسول الله» ١/ ٣٨ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» .

رواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله» ١/ ٣٩ .

وعن المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله، أأقتله

يارسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله» فقال: يارسول الله! إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال».

رواه البخاري في كتاب «المغازي» باب (١٢) ٥ / ١٩.

ورواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «تحريم قتل الكافر بعد قول: لا إله إلا الله» ١/ ٦٦-٦٧.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَة من جُهينة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكَفّ عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي: «يا أسامة! أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟»، قلت: يا رسول الله! إنما كان متعوذاً، قال: فقال: أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، قال: فما زال يُكرّرها عليّ حتى تمنيتُ أنّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

رواه البخاري في كتاب «الديات» باب «قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾» ٨/ ٣٦.

ورواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «تحريم قتل الكافر بعد قوله لاإله إلا الله» ١/ ٦٨.

وفي رواية لمسلم: «أفلا شققت عن قلبه»؟.

وفي أخرى: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة».

وروى ابن مردويه عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أسامة قال: لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً، قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً . . .

وعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» فقالوا: يارسول الله! ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ماصلّوا».

رواه مسلم في كتاب «الإمارة» باب «وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع. . .الخ» ٦/ ٢٣ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: دُلَّني على عمل إذا عملتُه دخلت الجنة؟ قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتُؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا.

فلما ولَّى قال النبي ﷺ: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا».

رواه البخاري في كتاب «الزكاة» باب «وجوب الزكاة» ٢/ ١٠٩ .

ورواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة» ١/ ٣٣ .

وفيه: «لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ في حديث الخوارج ـ فقام رجلٌ غائرُ العينين مشرف الوجنتين ناشزُ الجبهة كَثُّ اللحية محلوقُ الرأس مشمّر الإزار ـ وهو ذو الخويصرة التميمي كما جاء مصرحاً في رواية أبي سعيد أيضاً ـ فقال: يا رسول الله!اتق الله! فقال: «ويلك ! أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟».

قال: ثم ولى الرجل، قال خالد: يارسول الله! ألا أضرب عنقه؟ قال: «لا لعله أن يكون يصلي»، قال خالد: وكم من مُصلٍّ يقول بلسانه ماليس في قلبه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب قلوبَ الناس ولا أشق بطونهم. . .الحديث».

رواه البخاري في كتاب «المغازي» باب «بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع» ٥/١١٠.

ورواه مسلم في كتاب «الزكاة» باب «ذكر الخوارج وصفاتهم» ٣/١١١.

وعن عمرو بن مُرَّة الجهني رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله! أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وصمت رمضان وقمته فممن أنا؟ قال: «من الصديقين والشهداء».

رواه ابن حبان وابن خزيمة في «صحيحهما».

وعن عبيدالله بن عدي بن الخيار أن رجلاً من الأنصار حدثه أنه

أتى النبي ﷺ في مجلس فسارّه يستأذنه في قتل رجلٍ من المنافقين، فجهر رسول الله ﷺ فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟» فقال الأنصاري: بلى، يا رسول الله، ولا شهادة له، فقال: «أليس يشهد أن محمداً رسول الله؟» قال: بلى، ولا شهادة له، قال: «أوَليس يُصلي؟» قال: بلى، ولا صلاة له. قال: «أولئك الذين نهى الله عن قتلهم».

رواه الشافعي في «ترتيب المسند» باب الإيمان والإسلام ١/ ١٣.

ورواه أحمد في «المسند» ٥/ ٤٣٢.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يُغِرْ حتى يُصْبِح، فإذا سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح فنزلنا خيبر ليلاً.

رواه البخاري في كتاب «الجهاد والسير» باب «دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة... الخ» ٤/ ٥.

وعنه رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يُغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان فإنْ سمع أذاناً أمسك، وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «على الفطرة» ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: «خرجتَ من النار» فنظروا فإذا هو راعي مِعْزًى.

رواه مسلم في كتاب «الصلاة» باب «الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان» ٢/ ٤.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا فجعل خالد يقتل منهم ويأسِر، ودفع إلى كل رجلٍ منَّا أسيرَه، حتى إذا كان يومُ أمرَ خالدٌ أن يقتل كلُّ رجلٍ منَّا أسيرَه، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجلٌ من أصحابي أسيرَه حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه فرفع النبي ﷺ يدَيْه فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين».

رواه البخاري في كتاب «المغازي» باب «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة» ٥/١٠٧.

وعن عصام المزني رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا بعث السرية يقول: «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً».

رواه أحمد في «المسند» ٣/٤٤٨.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته».

رواه البخاري في كتاب «الصلاة» باب «فضل استقبال الصلاة» ١/١٠٢.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح

منه، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ماكان من العمل».

رواه البخاري في كتاب «أحاديث الأنبياء» باب «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ...﴾» الخ ٤/ ١٣٩.

وروى مسلم نحوه في كتاب «الإيمان» باب «الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً» ١/ ٤٣.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرَّمه الله على النار» قال: يارسول الله! أفلا أخبر به الناس فيَسْتَبْشِروا؟ قال: «إذاً يتكلوا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً.

رواه البخاري في كتاب «العلم» باب «من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا» ١/ ٤١.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

رواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً» ١/ ٤١.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال: لا إله إلا الله لا نكفِّره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل...». الحديث.

رواه أبو داود في كتاب «الجهاد» باب «في الغزو مع أئمة

الجور» ٣/ ٨.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار».

رواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً» ١/ ٤٣.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «كُفُّوا عن أهل لا إله إلا الله لاتكفروهم بذنبٍ، فمن أكفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب».

رواه الطبراني في «الكبير» ١٢/ ١٣٠٨٩.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يارسول الله! من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».

رواه البخاري في كتاب «العلم» باب «الحرص على الحديث» ١/ ٣٣.

وروى البخاري في «صحيحه» معلّقاً باب «من حلف بملة سوى الإسلام» وقال: النبي ﷺ: «من حلف باللاّتِ والعُزَّى فليقُلْ: لا إله إلا الله» ولم ينسبه إلى الكفر. «صحيح البخاري» ٧/ ٢٢٣

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

كتبه السيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني

الفهـــــــــرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
موقف الإمامين ابن تيمية والشوكاني	١٠
موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب	١٣
رسالة مهمة أخرى للشيخ في الموضوع	١٥
بيانٌ مهم	١٦
تأكيد الشيخ ابن باز تحذيره عن المبادرة إلى التكفير والتشهير	١٨
أدب الخلاف	٢٠
خطبة الجمعة بتأييد الموقف	٢٣
المملكة ليست مصدراً للتكفير أو الهجوم والتجريح	٢٦
محاضرة للشيخ محمد بن عثيمين بهذا الخصوص	٢٨
ميزان الإيمان	٣١
سباب المسلم فسوق وقتاله كفر	٣٥
أقوال السلف وبعض العلماء في التحذير من التكفير	٣٨
مقام الخالق ومقام المخلوق	٤١
مقام المخلوق	٤٤
أمور مشتركة بين المقامين لا تنافي التنزيه	٤٩
العوام ومباحث الصفات في العقيدة	٥٢
من شعب التكفير الكبر والعجب والاحتقار	٥٥
المتكبر عدو الله	٥٧

الموضوع	الصفحة
من علامات الكبر	٥٩
العجب مفتاح الشرور	٦١
آفات العجب	٦٣
العجب بالرأي الخطأ من فتن هذه الأمة	٦٥
التوحيد أعظم النعم وثمرته الطاعة	٦٧
الإيمان أحوج ما يكون إلى حسن التعهد والاحتياط	٦٨
الدعاء بالموت على الإيمان	٧٠
البشارة لأهل التوحيد بالنجاة والفوز	٧١
لا يجوز البحث عن المنكرات المستورة	٧٣
وجوب الحكمة في الدعوة للحق	٧٥
النهي عن التفرق والاختلاف	٧٥
الخاتمة: في بيان العقيدة التي بها النجاة	٧٦
تفسير حديث: «رضيت بالله رباً»	٧٧
نصوص نبوية في بيان الإسلام وصفة المسلم الحق	٧٩
أحاديث نبوية في الموضوع	٧٩
الفهرس	٩١

* * * * *